التيفوس

للدكتور احمد زكى

اليوم يوم من الأيام التى طواها القرن الثامن عشر بانطوائه. والبلد لندن حين لم يكن لها هذا الشأن الحاضر ولا لمرافقها الصحية هذا الخطر الكبير، ولا لأهلها هذه الثقافة وهذا اليسر المعروف. والدار دار المحكمة وهى تقع فى سرة ذلك البلد العتيق.

ففى ضحوة ذلك اليوم أخذ الناس يتوافدون على تلك الدار زرافات ووحدانا ؛ هذا مجرم فاجر فى عينه القسوة وفى مشيته التحدى، يقوده رجال من الشرطة على حذر وريبة . وهذا مجرم منكسر الحال فى طرفه الذلة يقوده شرطى ، وهؤلاء نفر من ذوى هذا المجرم أو ذاك فى أثوابهم تهدل القدم وعليها لون السنين، وفى أحذيتهم خروق السعى المتواصل ، وعلى وجوههم شحوب الجوع وهم الرزق وقذارة الفقر ، أو صفرة المرض وسحنة الاسراف فى فنون الدعارات الرخيصة . وهذا أحد المحلفين جاء يمشى فى زهو المسيطر، وخيلاء الحاكم، والى جانبه صاحب له يرفع عقيرته يجادل صاحبه فى شأن من شئون القضاء، يريد أن ينبه من حوله من الطغام أنه خبير بالقانون بالرغم من كونه محلف ، عالم بسياسة الملك وتقسيط العدالة على الرغم من أنه اختير من صفوف السوقة وغوغاء الرعية. وهذه عربة فخمة برز منها رجل أنيق الملبس ناعم الحال فى وجهه حمرة النعمة وفى جلده دهن الموائد ، جاء للتفكهة والتسلية لما أعوزه ما يشغل به وقته.

أما فى داخل الدار فقد أخذت المقاعد تمتلىء، ثم ما بين المقاعد ثم الزوايا والاركان، وامتلأ ما بين المقاعد والسقف بأنفاس ثقيلة تكاد تسقط ، وأبخرة كثيفة ندية تكاد تتقطر ، ورائحة تألفت من روائح ذات أسباب عدة كلها مما لا يطيب إلا فى أنوف الكلاب . ودخل المحلفون فأثاروا اهتمام الجمهور وعلم الناس عندئذ أن القاضى يكاد يدخل القاعة ، ولم يلبثوا أن صاح بهم صائح فى صوته قوة وإمرة «وقوفا» فوقف الناس ودخل صاحب الجلالة القضائية وعلى رأسه عارية من الشعر بيضاء، كأنما تطمئن الناس الى عدل القضاء . وجلس الناس وافتتحت المحكمة وجىء بالمذنب بعد المذنب وقام الاتهام فصال وجال وبالغ فى وصف الجرم ما شاء له حرصه على المجتمع أن تعبث به يد الفساد، وتذهب بطمأنينته نزعات من الشر خالدة فى نفوس البشر . وقام الدفاع فأنكر الجريمة ودفع الحجة بالحجة والنضبة بغضبة أشد منها وتقبضت كفاه، ولما لم يكن من حسن اللياقة دخول الاكف فى النقاش انهال على المنضدة بيديه حتى أوجع كفيه، ولكن ذلك كان ثمنا طيباً للاثر الطيب الذى كان لدفاعه عند الجمهور . وجاء دور المحلفين فقالوا كلمتهم . وجاء دور القاضى فنطق بالاحكام . وانقضى اليوم والجمهور بين راض وحانق . ومضى أسبوع فأسبوع فشاع فى الناس أن رئيس المحلفين قد مات ، فعلم الحانقون انهم كانوا مصيبين فى حنقهم وان الحكم كان خاطئاً ، وقال الراضون ان هو إلا سهم طائش عارض من سهام عزريل أصاب المرحوم اتفاقا . ومضى أسبوع فشاع فى الناس أن اثنين من المحلفين ماتوا ، فزاد الحانقون حنقاً على الأحكام ، وأخذ الراضون يرتابون فى صحة الميزان ، ولكن الحق وضح واليقين تجلى لما مات القاضى بعد ذلك بأسبوع . وهل مات أحد من الجمهور ؟ بالطبع لم يبلغ الناس شىء من ذلك ، وما كان من الممكن أن يبلغهم .

وجاءت جلسة قضائية تعقبها جلسة أخرى . فزادت الجنائز وامتلأت المقابر وسر الدفانون . فبان ما لم يكن بائنا من قبل ، ذلك ان جمهور النظارة أيضاً حصد منه الموت أكبر حصاده ، وزالت الرابطة ما بين الاحكام وبين الاموات ، وعلم الناس انه وباء من تلك الاوبئة التى يبعثها الله على عباده من حين الى حين لغرض لا يعلمه أحد سواه ، وخافوا تلك المحاكم واستشأموا منها وأسموها السوداء Black Assizes .

وفى هذا الشهر الحالى من القرن الحالى فى مدينة القاهرة فى أشد عيادات العالم المتمدين ازدحاما وقذارة وسوء حال، وقع حادث كالذى حكيناه فأصيب بضعة من أطباء القصر العينى ومساعديهم بنفس ذلك المرض الذى ذكرناه ،

ولكن علم الانسانية بأعداء الانسان زاد كثيراً ، وفقهه للأوبئة تقدم تقدما كبيراً ، فما كادت تظهر الأعراض على المنكوبين المذكورين حتى عرف المرض الخبيث وأسرع اليهم بالعلاج، أو بالقدر الذى يستطيعه الانسان من ذلك فى المرحلة الحاضرة من تقدمه فى فهم هذا المرض ، والذى نتمناه ألا تنشر هذه الكلمة حتى يدخل الأطباء المصابون دور النقاهة، والذى نتمناه أن يمن الله بالشفاء على من لم نسمع بهم ممن لاشك قد أصيبوا من المرضى الخارجيين بالقصر العينى ، والذى نتمناه أن يكون من هذا درس نافع للجميع لا للقاهرة فحسب، بل فى الريف كذلك .

أما التيفوس فمرض من أخبث الأمراض، ولا شك أنه قديم ولكن القدماء لم يتبينوه لاشتباه أعراضه بأعراض الحميات عامة، وهو قد يتوطن فى الأقطار فتظهر منه إصابات قليلة، ولكنها ثابتة العدد لاتتغير إلا يسيراً، وقد يمتد فى القطر فينتشر وباؤه فيحرث الناس حرثا، ففى الوافدة التى زارت ارلندا عام ١٨٤٦ حصد التيفوس من عاصمتها وحدها نحواً من ستين ألفاً . ويساعد على إحياء التيفوس ونشره ازدحام الناس مع سوء الغذاء والقذارة، لذلك تراه يظهر فى الحروب بين الجيوش، وآخر أمثلة ذلك الوافدة التى زارت بلاد الصرب فى الحرب العظمى، وذلك ان النمسا هاجمت البلاد الصربية لأول مرة فهاجر السكان من غير المحاربين الى الجنوب فى ازدحام وفاقة وعرى وسوء حال، فاستيقظ الوباء النائم وبلغ أشده فى عام ١٩١٥ ، وعندئذ خافت النمسا على جيوشها وكانت تنوى مهاجمة الصرب المرة الثانية فأجلتها ، وقام هذا المرض الوبيل نيابة عنها ففتك بالصرب أشد فتك فمات منهم بسببه فى ستة أشهر مائة وخمسون الف نفس .

والتيفوس تنتقل عدواه بواسطة القمل ، وبالقمل وحده على قدر ما حقق الباحثون. ومن الغريب أن هذه الحقيقة لم تدخل دائرة اليقين إلا فى عام ١٩٠٩ فانهم حقنوا قرداً بمقدار من دم مريض بالتيفوس فانتقلت العدوى الى القرد فربوا عليه قملا ونقلوا هذا القمل الى قردة أخرى فاصابتها العدوى . وهذا يفسر لنا أن التيفوس يحصل إذا اجتمعت الزحمة والفقر وفى الحروب ، ولقد صدق من أسماه « داء القذر » ويفسر لنا سرعة انتشاره من مريض لصحيح ، ومن المريض للطبيب ، ويفسر لنا أنه ينتشر فى البلاد المعتدلة وفى الباردة على الأغلب فى الشتاء أى فى الحين الذى يرغب فيه الناس ولاسيما فقراؤهم عن الاستحمام وفى الحين الذى يزدحمون فيه فى المساكن والقيعان رغبة فى الدفء وهربا من البرد .

أما سبب المرض فغير محقق تماما الى الآن . يظن بعضهم انه فعل جراثيم دقت حتى عجزت عن رؤيتها اكبر المجاهر، وصغرت حتى عجزت مرشحات الجراثيم المعروفة عن حبسها ، ولكن أكثر البحاث اليوم يرون أن هذه الجراثيم على صغرها يمكن ترشيحها ، ودليلهم على ذلك أن دم المريض اذا رشح ثم حقن الراشح منه فى جسم سليم لم تصبه العدوى . وقد حاول كثيرون الحصول على هذه الجراثيم ، ونجح كثيرون فى الحصول على جراثيم ، ولكن جراثيم الباحث لم تطابق فى الصفات جراثيم الباحث الآخر، فدل ذلك على أنها عوارض ، وبعضها لا يعطى المرض فهى ليست جراثيم المرض . ولعل أوثق ما استكشف فى هذا الصدد مما له علاقة بهذا المرض جسيمات صغيرة وجدها الباحث ريكتس Ricketts عام ١٩٠٩ فى دم المرضى ببلاد المكسيك ، وأمن على وجود أشباه لها فون فروفازيك Von.Prouvazeh أثناء بحثه عام ١٩١٠ فى بلاد الصرب، وجدها فى باطن خلايا الدم البيضاء للمرضى ، وسميت هذه الجسيمات باسمى هذين الباحثين اللذين ذهبا ضحية المرض تشريفا لهما وحفظا لذكرهما . ومن بعدهما وجدت هذه الجسيمات فى القناة الهضمية للقمل . والابحاث فى هذا السبيل لاتزال جارية تبعث بأشعة من نور ضئيل فى ظلمات هذه العلة المبيدة.

وأعراض التيفوس تشابه من بعض الوجوه أعراض التيفود لذلك كانا يختلطان على الناس حتى جاء جرهارد Gerhard عام ١٨٣٧ ففرق بينهما . وسمى المرض الثانى بالتيفود ومعناها شبيه التيفوس : والمدة التى تمضى على دخول الميكروب فى الجسم وظهور أعراضه تسمى مدة الحضانة ، وبئست هى من حضانة، تتراوح ما بين خمسة أيام الى واحد وعشرين يوما، وتظهر الاعراض على الارجح بغتة وقد تظهر بالتدرج . فترتفع الحرارة ويصحب ارتفاعها قشعريرة يصحبها صداع شديد وقىء ، ويكون الهذيان أول الامر زائطا ، ويظهر فى نحو اليوم الخامس على جلد المريض طفح ، وفى الوجه ثقل وبلاهة . وفى الاسبوع الثانى يصح الهذيان تمتمة ، وان شاء له الله الشفاء والسلامة نزلت حرارته فى نحو اليوم الرابع عشر فجأة وصحبها عرق غزير.

ولا سبيل لاتقاء التيفوس إلا بتطهير السكان من القمل ، والقمل من الحشرات التى يمكن استئصالها ولو أن كثيراً من المصريين فى الاحياء الفقيرة وبؤساء الريف يظنون ان القمل كالبق لاسبيل لاستئصاله، وربما أتينا فى كلمة أخرى على طرق ذلك.